

## عناصر العنصرة

## "نسمعهم ينطقون بألسنتنا بعظائم الله"

كيف تكلم "الرسل العاميون بألسنة ولغات كل أمة تحت السماء"؟ وسمعهم الجميع ينطقون بألسنتهم (لغاتهم) بعظائم الله؟ لكي نتأمل بحدث العنصرة نحتاج إلى التمعّن قليلاً بثلاث عناصر ضرورية لها: الفم، اللّغة والأذن.

"لها أفواه ولا تتكلم" (مز ١١٥، ٥). بهذه الصّفة ينعت الكتاب المقدّس الأوثان. تلك لها أفواه حسية لكنّها لا تنطق ولا تعطي لحياتنا معاني! على عكس الله تماماً، حيث لا شبه بين الله والأوثان، فالله له كلمة فاعلة وقوية جدّاً وينطق في التاريخ ويخلق لكن ليس له فاه حسيّ (في العهد القديم). والمقصود إذن بالوثن هو كلّ المظاهر التي نؤلّفها في حياتنا لكنّها ظاهر دون حقيقة بما يخصّ جوهر حياتنا! كلمة الله تخرج منه ولا تعود إليه دون ثمر، مهما بلغت قساوة قلوب البشر، وأشكال الأوثان لا تثمر في قلوب الناس مهما بلغت خفة هؤلاء الأخيرين.

نحن البشر، نطق من أفواهنا الحسيّة، وشبهنا شبه من يتأرجح بين إله وبين وثن! نتشبه بالله عندما نتكلم من حقائقه، ونشبه الوثن عندما نتكلم من مظاهر رياء دهرنا. إن لم تكن الكلمة إلهية لا يمكنها أن تلمس قلوب البشر. فالوثن يعني تعددية رهيبة في خلاف، أمّا الله وكلمته فهي وحدها تجعلنا نتحد ببعضنا البعض في تفاهم وتناغم. في الخروج صرخ الشعب بقلب واحد وبفم واحد "كلّ ما يقوله الربّ نعمله"، فوحّدته الحقيقة. وعند حدث بابل "لم يعد الواحد يفهم ما يقوله الذي بقربه" (تك ٩ و ١١)، لأنّ الخطيئة ألغت التفاهم ونشرت الشقاق. واليوم في العنصرة يجري إصلاح ما تدمر في بابل!

"اللّغة" هي أداة للتعبير عند الإنسان، وهي كلّ أداة لذلك. علم اللّغة يعني النجاح في تطابق التوصيف مع الموصوف، هكذا تكون اللّغة معبّرة فعلاً عمّا تشير إليه (علمياً). لكن هذا التعريف للغة يبدو ممكناً فقط في الشؤون الحسيّة، إذ يظهر قاصراً في الأبعاد الروحيّة. فآية لغة تستطيع أن تطابق بكلماتها

عن مفاهيم مثل الفرح، الألم، المحبة، الإعجاب،...؟ لهذا نجد الإنسان قد اعتمد إلى جانب الكلمات أساليب جديدة ليغني لغته بها مثل: الألحان والرسم والسجود والشموع والرقص والدموع... مهمة اللغة هي نقل المعاني في تعابير بشرية، وصعوبتها من جهتين: أولها عجزها عن حمل كل المعاني المطلوبة- مرّات عديدة، وثانيها صعوبة تقبلها عند سامعيها لأسباب عديدة.

أما "الأذن"، فيشير الكتاب إلى تأثرها بالوضع الروحي للإنسان. "لهم آذان ولا تسمع"، "أصمّ آذانهم لكي لا يسمعون ولا يفهموا لئلا يعودوا ويرجعوا للرب"، يقول الكتاب. فسماع الكلمة بمعنى "الاستماع لها" لا يعني فهمها دائماً أو تقبلها! وهذا ما يشير إليه المثل الشعبيّ بعبارة "حوار الطرشان"! فبأهمية قيمة الكلام وحقيقته تأتي أهمية الرغبة بسماعه! عندما اعتمد يسوع سُمع صوت من السماء، للمعمدان جاء الصوت "هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت"، وللإهود جاء الصوت دويّاً، لم يفهم، وكان الصوت عينه!

ما الذي جرى في العنصرة؟ لقد تحقّق العاملان وغاب أوسطهما. كانت هناك كامل الحقيقة بحلول الروح القدس، روح الحقّ، فهل من كلمة أحقّ من كلام الروح والبشارة المسيحيّة وبشرى موت وقيامة يسوع؟ وكانت هناك أيضاً الرغبة عند اليهود المجتمعين الذين جاءوا من كلّ المعمورة وسكنوا أورشليم لشهور حول أعياد الفصح حتّى العيد الأخير من تلك المواسم اليهوديّة عيد الخمسين (العنصرة)، هؤلاء قصدوا أورشليم رغبة بالحجّ والتفرّغ للعبادة والصلاة. وكان عند اليهود عامّة في زمن بداية العهد الجديد الشعور أنّهم قد وصلوا إلى نهاية الأزمنة. وكانت قلوبهم عارمة بالشوق والانتظار. لهذا بدأهم بطرس بكلمات يوثيل النبي التي ينبئ فيها عن سكب للروح القدس في آخر الأزمنة؛ فيتنبأ حتّى الشبان والشابات!

والذي غاب كان عامل اللغة! لا شك أنّ جميع اليهود الذين اجتمعوا من "كلّ أمة تحت السماء" كانوا يجيدون القليل من اللغة العبريّة اللازمة ربّما للعبادة، لكن منّ منهم ليس من أصل عبريّ أي من يهود المهجر والشّتات كان يحتاج فعلاً لسماع كلمة الله بلغته (لسانه).

لهذا عندما تحقّق العاملان الأساسيان، شاءت إرادة الله أن تكسر حاجز اللغة المانع للرسول أمام ما يملكونه من حقيقة وأمام الأتقياء بما يملكونه من رغبة، فأعطاهم الروح أن ينطقوا وسمع الجميع الرسل يتكلّمون كلاً بلغته ويعظّمون الله.

وما الذي يجري معنا، ونحن كنيسة فُتحت لنا فيها الفرصة أن نبقي في عنصرة دائمة، إذا ما شئنا أو

أردنا؟

سأل رئيس الدير مرّة الأب الراهب سلوان الأثوسي: "متى يتكلّم الأب الروحيّ يا سلوان؟" فأجاب الراهب "عندما ينطق به الروح!" وعندها اكتشف رئيس الدير أنّ هذا الراهب قد بلغ درجة عالية في الحياة الروحيّة! نعم، علينا أن نصمت وليس أن نتكلّم- نحن، لكي نترك الروح يتكلّم! الصمت هو فضيلة المبتدئين روحياً. والصمت مقدّس ليس لأنّه يمنع الكلام الخاطيء، بل لأنّه يؤهّلنا لكلام الروح. ما هي دوافع كلامنا؟ الثرثرة- الثأر- الخدعة- التبيّح- حبّ إثبات وإقامة الرأي الشخصيّ- الإدعاء...؟ أم هناك دوافع هي المحبّة- البشارة- النصح حيث نعرفه وحيث هو ممكن ومفيد؟ عندما يصف الكتاب المقدّس الأنبياء يوضح لنا أنّهم كانوا يعاندون الروح بميلهم للصمت وكان الروح يجبرهم على الكلام، مما يعطيهم. وهذا التردّد هو شيء من الحذر والصدق، لأنّ النبيّ لا يريد أن يتكلّم هو بل أن يصمت لكي يتكلّم الروح. ولقد طالع الأنبياء الشعبَ بعبارة شهيرة: "هذا ما يقوله الربّ، أنصت يا إسرائيل". يحسن للمبتدئ أن "يجعل حارساً لفمه وباباً حصيناً على شفّتيه"، وأن يراقب دوافع كلّ كلمة يريد أن يقولها. فإذا كانت الدوافع حقيقيّة وإلهيّة فليتكلم وإلاّ فليصمت! إنّها رياضة روحيّة مهمّة جدّاً جدّاً، ولكنّها قد تبدو لبعضنا قاسيةً لأنّها ستلغي على الفور ربّما أغلب كلماتنا، أو الكثير منها على الأقلّ! هذا هو فمنا: "يا ربّ افتح شفّتيّ فيخبر فمي بتسبحتك".

أمّا "لغتنا"، بكلّ ما تعنيه من كلام وفنون وحركات وسياسة واجتماع وتعليم،... فيجب أن تكون "ترجمة" حقيقيّة تنقل كلمة الله (و فقط) إلى مسامع الناس المختلفين لغويّاً وفكريّاً وحضاريّاً واثنيّاً ودينيّاً، وتجعلها مفهومة، فيسمعونها، نحن رسل الربّ يسوع والذين يحلّ علينا الروح بفيض في حياة الكنيسة وأسرارها، ننطق بلغتهم لكن "بعظائم الله!"

يجدر بنا إذن أن نتعلّم لغة العلم بدقّتها ولغة الأطفال برقّتها ولغة الأديان الأخرى ولو على غرابتها، وكلّ لغة "لكلّ أمة تحت السماء". إنّ الروح وسكبه علينا لهو دَيْنٌ يستحقّ منا أن نتعلّم لغات الدنيا كلّها بتنوّعها وتعدّد طرقها. الموسيقى تأخذ أسمى قيمة لها حين تنطق للناس بكلمة الله وحقيقة الوجود والحياة، وكذلك الرسم، وهكذا السياسة والأعمال والتجارة، حين يصير الربّ يسوع الكلّ لكلّ بالروح القدس وعلى حساب المطوّبين، هؤلاء الذين أقدامهم تبشّر بالسلام!

أما آذاننا، هذه المهينة لهمسات الروح وأسرارها، فعلينا أن ننقيها من الأهواء. الأهواء كاللون الغريب الذي يعلّق على مرآة نفسنا. لهذا طوّب الربّ مَنْ عَيْنُهُ نَقِيَّةٌ، أما الذي عينه شريرة فيصير كلُّ جسده (حياته ونظرته للأمور) شريراً. عندما ينزل الروح على مرآة نفسنا، إذا كانت مطبوعة بألوان من الأهواء، على الفور ينعكس ذلك النور الصافيّ إلى لون الهوى. وهذا ما نسمّيه في حياتنا اليوميّة "سوء الفهم"، أي نحوّل الحقيقة الصالحة إلى فكرة شريرة، لأنّه لدينا مسبقاً قناعات أو ميولاً خاطئة. تنقية القلب مسألة هامّة جدّاً وأهمّيّتها بأهميّة ثمّن وسموّ الكلمة الإلهيّة. لا يمكن لقلب مملوء بالرغبات والأهواء والنزوات أن يفهم الكلمة الإلهيّة كما هي دون تشويه، عن وعي مرّات عديدة ودون وعي مرّات أخرى.

الكنيسة هي معمل لتنقية وقلّترّة قلوبنا وأفكارها وميولها. وأهمّ الطرق فيها لذلك هو سرّ الاعتراف. الذي لا يعترف لا يعرف ذاته، ولا يدري أين مرّاته ملطّخة باللّون الأسود اليائس أو الأحمر العدائي أو سواها من الألوان... فيستقبل، نعم، كلمة الله من كلّ مصادرها، لكنّه يقرؤها على غير صفائها وحقيقتها، حسب ما تعكسها له أهواؤه المتجذّرة فيه، يعرفها أو يجهلها. يتهاون بعضنا بسرّ الاعتراف، معتمدين على ذواتنا لمعرفة ذاتنا، وهنا يحقّ علينا كلام الربّ: "أعمى لا يقود أعمى"!

فمنا ولغتنا وأذننا، هي أدوات الروح والإناء لعنصرته. لا ننتظرنّ أعجوبة العنصرة لكن قوتها. الأعجوبة التي تمّت في يوم العنصرة فرضتها ظروفها الخاصّة، ومثل هذا الظرف كان الحدث مع كورنيليوس عندما بشره بطرس، ومثله ظروف نسمعها في حياة قديسين تكلموا مع "أجانب" لا يجيدون هم لغتهم حينما قصدهم هؤلاء بحاجة حقيقيّة وإيمان. لكن كلّ هذه الحالات لها ظروف تفرضها يقدرها الله! أمّا نحن فلن نتخلّى عن استمراريّة قوّة العنصرة التي نتلقّاها ونقبلها كلّ يوم وكلّ لحظة- إذا شئنا - في الكنيسة. نتعب لكي ينطق فمنا من مصدر كلماته من فم الله وكما "يعطينا الروح أن ننطق"، ونجتهد لننقن كلّ لغة وكلّ الأساليب للتعبير لنجعلها كلّها لغة للكلمة الإلهيّة وحقيقة الحياة، وننسك بالصوم والاعتراف والصلاة والتوبة لكي ننقي عين نفسنا فتسمع آذاننا عند هبوب ريح الروح العاصفة كلمات ناطقة وليس دويّاً أعجماً.

لنصلّ إلى الروح: "أبها الملك السماويّ... هلمّ واسكن فينا وطهرنا"، آمين.